الرحالة والجغرافيون في أوروبا العصور الوسطى

عرض
د. هانم عبد الرحيم إبراهيم
أستاذ المكتبات والمعلومات
المساعد بجامعة الإسكندرية

عمران، محمود سعيد .
الرحالة والجغرافيون في أوروبا العصور الوسطى/ محمود سعيد عمران.- الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ٢٠١٥.- ٤٠٤ ص .

يعتبر هذا العمل هو أول كتاب يوضع في العالم العربي عن موضوع الرحالة والجغرافيين في أوروبا في العصور الوسطى، وقام بإعداد هذا الكتاب المتميز، الراحل الأستاذ الدكتور محمود سعيد عمران أستاذ تاريخ وحضارة أوروبا في العصور الوسطى بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية، والذي حاز على جوائز الجامعة التقديرية والتشجيعية والتميز العلمي، نظرًا لعطائه العلمي وتميزه في مجال التاريخ والحضارة الأوروبية في العصور الوسطي. وكان هذا العالم الراحل هو المرشح المصري الوحيد لنيل جائزة بالزان العالمية في تاريخ العصور الوسطى لعام ٢٠١٣م، كان سيادته – رحمه الله – عضوًا بارزًا في الجمعيات المحلية والإقليمية والعالمية في المجال، ومنها جمعية الحروب الصليبية والشرق اللاتيني. وقد قام الأستاذ الراحل بإعداد ستة وستين بحثًا، واثنين وعشرين كتابًا في تاريخ وحضارة أوروبا في العصور الوسطى. كما أشرف سيادته على تسع وثلاثين أطروحة للماجستير والدكتوراه ، بالإضافة إلى مشاركته الفعالة في المؤتمرات المحلية والعالمية. تعتبر هذه الأبحاث العلمية ذات قيمة علمية متميزة بما تحمله من دقة البحث والابتكار، والإضافات الجديدة للعلم .

ينقسم هذا الكتاب الشيق إلى بابين: تناول الباب الأول الرحالة في أوروبا في العصور الوسطى، بينما تناول الباب الثاني الجغرافيين في أوروبا في العصور الوسطى. ومن السمات المميزة لهذا العمل أنه يتضمن عددًا من بحوث المؤتمرات التي تقدم بها المؤلف للجهات العلمية المتخصصة في المجال. وقد ألحق بنهابة هذا الكتاب قائمة بمختصرات أسماء المصادر والمراجع الإنجليزية المستخدمة بالكتاب، بالإضافة إلي أربع قوائم للمصادر والمراجع التي تم الاستشهاد بها في هذا الكتاب ؛ وشملت قائمة المصادر الأجنبية ٦٧ مصدرًا باللغة الإنجليزية، وضمت قائمة المصادر العربية ١٦ مصدرًا باللغة العربية، بينما اشتملت قائمة المراجع الأجنبية على ٥٨ مرجعًا بالإنجليزية، أما قائمة المراجع العربية والمعربة فتضمنت ١٣ مرجعًا بالعربية. يرجع أقدم هذه المصادر أو المراجع إلى عام ١٨٢١م، وأحدثها يرجع إلى عام ٢٠١٣م. مما يدل على الدقة والأصالة والحداثة في تناول موضوعات هذا الكتاب.

رغم أن هذا العمل موجه أساسًا لطلاب أقسام التاريخ بالجامعات العربية المختلفة؛ إلا أن هناك عددًا من المستفيدين المحتملين الذين قد يهمهم التعرف بالتفصيل على هذا التخصص الدقيق المتميز الذي تم تناوله في هذا الكتاب، وهو موضوع الرحالة والجغرافيين الأجانب الذين زاروا مصر وبلاد الشام والعراق، وبلاد الشرق في خلال العصور الوسطى الأوروبية. ومن بين

هذه الفئات التي يمكنها الإفادة من هذا العمل الجغرافيون المهتمون بالجغرافيا التاريخية، وكذلك الباحثون المهتمون بالخرائط القديمة للمنطقة العربية أو في العالم القديم خاصة تلك التي رسمها الجغرافيون الأوربيون الأوائل؛ حيث يشتمل هذا الكتاب على بيانات عن ٣٤ خريطة جغرافية قام برسمها الجغرافيون الأجانب منذ القرن السادس قبل الميلاد مرورًا بالعصور المسيحية الأولى وحتى العصور الوسطى المسيحية. كما يمكن أن يستفيد من هذا العمل أيضًا المهتمون بالكتابة عن أدب الرحلات وكتب الرحالة الأجانب في تلك العصور، وهذا المجال من المجالات المتميزة التي لم يتم تناولها من جانب الباحثين في عالمنا العربي، بالإضافة إلى ذلك يعتبر هذا العمل مصدرًا هامًا للباحثين في مجال المكتبات والمعلومات المهتمين بحصر الإنتاج الفكري الأجنبي عن المنطقة العربية في العصور الوسطى ؛ وهذه الفترة الزمنية بالذات تم تناولها من جانب عدد من الباحثين، ولكن من خلال حصر الإنتاج الفكري العربي لعلماء المسلمين في عصور الحضارة الإسلامية التي عاصرت العصور الوسطى بأوروبا، أما الإنتاج الفكري الأجنبي الذي تناول موضوعات خاصة بالمنطقة العربية أو العالم الإسلامي فلم يتم حصره، وبحث خصائصه من وجهة النظر العربية، ولذلك يمكن اعتبار هذا الكتاب أحد المصادر العربية الهامة التي تعرف بهذا الإنتاج وتساعد الباحث العربي في الحصر الببليوجرافي لكتب الرحالة والجغرافيين الأجانب للتعرف على السمات الموضوعية التي تناولتها كتب الرحالة الأجانب، وكذلك التقسيمات الموضوعية لعلم الجغرافيا في ذلك الوقت، كما يمكن من خلاله متابعة مصادر المعلومات التي اعتمد عليها هؤلاء الجغرافيون الأجانب ومدى تواصلهم مع الجغرافيين العرب، والمسلمين في ذلك الوقت.

تناول الباب الأول من هذا الكتاب تسعة مجالات خاصة بالرحالة الأوروبيين في العصور الوسطى، تمثلت هذه المجالات فيما يلي:

١- مصر والشام في كتب بعض الرحالة الأجانب في العصر البيزنطي، قد تم التقدم بهذا البحث إلى مؤتمر الإسكندرية الدولي الأول حول التبادل الحضاري بين شعوب البحر المتوسط عبر التاريخ، وقد عقد هذا المؤتمر في الفترة من ٢٢-٢٦ يناير عام ١٩٩٤م، وذلك في كلية الآداب بجامعة الإسكندرية، واعتمد هذا البحث على التسجيلات التي خلفها ثلاثة من الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر والشام بعد ظهور المسيحية ؛ حيث كانت الرحلات التي تتم خلال ذلك الوقت من الرحلات الدينية التي يقوم بها من يطلق عليهم الحجاج أو الزوار الراغبين في تتبع

خطوات الأنبياء، ومشاهدة الأماكن التي وقعت فيها المعجزات في بيت المقدس، وفي مصر، ولذلك فقد تم التركيز على التسجيلات التي خلفها كل من القديسة سلفيا أكويتين، والقديسة بولا والقديس جيروم الذي صاحبها في بعض أجزاء من هذه الرحلة، والتي قام جيروم بتسجيل بياناتها بدلا من القديسة بولا التي لم تدون بنفسها تفاصيل رحلتها. أما الرحلة الأخيرة التي تم تناولها في هذا البحث فهي تلك التي قام بها الرحالة ثيودوسيوس. وقد تضمنت هذه التسجيلات معلومات تاريخية هامة، وتفصيلات خاصة بالأماكن التي تم زيارتها ووصف للمدن والحياة الاجتماعية والأشجار والجبال وغيرها من التقاصيل الخاصة بالأماكن المقدسة.

٢- تناول المجال الثاني من مجالات هذا الباب التفاصيل الخاصة برحلة أركولف إلى الشرق عام ٦٧٠م / ٥٠ هـ، وهذا البحث تم تناوله ضمن بحوث ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط المنعقدة في جامعة عين شمس عام ١٩٨٥م. وترجع أهمية هذا البحث عن ذلك الرحالة أن أركولف يعتبر أول رحالة غربي زار الأماكن المقدسة، وبعض المناطق الشرقية عقب الفتح الإسلامي. تلك الفترة التي لم تصلنا عنها تسجيلات باللغة العربية. وتناولت تسجيلات رحلة أركولف تفاصيل عن بيت المقدس في عهد معاوية ابن أبي سفيان، وموقع المدينة، وبواباتها ومسجدها، وكنائسها. وتتابعت تفاصيل هذه الرحلة في دمشق والإسكندرية، وكريت ثم القسطنطينية، واشتملت هذه التفاصيل على معلومات هامة عن النواحي الاقتصادية، والاجتماعية، والمعمارية والحضارية في ذلك الوقت.

٣- استعرض المؤلف في هذا البحث " القدس والمسجد الأقصى في كتابات الرحالة الأجانب في الفترة من ٥٠- ٢٥٦هـ/ ٦٧٠- ٨٧٠م، هذه الفترة تمثل احد أزهى عصور الحضارة الإسلامية، وقد ألقي هذا البحث في جامعة دمشق التي نظمت بالتعاون مع الجامعة الأردنية المؤتمر الدولي الثامن حول تاريخ بلاد الشام في الفترة من ٢٢- ٢٦ من فبراير، لعام ٢٠٠٩م، واعتمد في تفاصيل هذا البحث على المصادر الغربية، وعلى التوراة فقط دون الرجوع للنص القرأني، لأن هؤلاء الرحالة لايؤمنون بما جاء في القرآن، وعلى ذلك تم سرد التفاصيل التي وردت بتلك الكتابات الخاصة بالرحالة الغرب دون مقارنتها بما جاء بالقرآن، والتي من خلالها يمكننا التعرف على طرق ومناهج الفكر الغربي والمغالطات التاريخية التي دونت في كتبهم .

٤- كانت رحلة الشهيد أنطونيوس إلى بلاد الشام ومصر في الفترة من [٥٦٠- ٥٧٠م] هي رابع مجالات البحث في هذا الباب الأول، وتم التقدم بها البحث إلى ندوة العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ٣٠ أكتوبر – ١ نوفمبر لعام ١٩٩٣م بكلية الآداب بجامعة المنيا، ونشر أيضًا في مجلة التاريخ والمستقبل، كلية الآداب بجامعة المنيا، يوليو ٢٠١٢م، وتناول هذا البحث الأديان، والأديرة، والمخلفات المقدسة، والتعاويذ، والمعلومات الجغرافية، والجوانب الاقتصادية، والحيوانات، وتحصينات المدن والتكايا والحمامات، والأدوية وشفاء المرضى، والتعليم واللغة، والعادات الاجتماعية.

٥- تم في هذا البحث الخامس تناول أسطورة الكاهن يوحنا ودورها في تحالف الصليبيين مع المغول ضد المسلمين ١١٤٦- ١٢٩١م، وقد ألقي هذا البحث في مؤتمر الدين والسياسة في الوطن العربي عبر العصور، الذي نظمه المجلس الأعلى للثقافة والجمعية المصرية للدراسات التاريخية بالقاهرة في الفترة من ٢٢- ٢٤ إبريل عام ٢٠١٣م.

٦- البعثات التبشيرية إلى الشرق هي المبحث السادس من مجالات الباب الأول لهذا الكتاب؛ وفيه تناول المؤلف الرحلات التبشيرية التي قام بها مبعوثون من قبل البابا لبلاد الشرق والأمبراطورية المغولية، ومن هؤلاء المبشرين أودوريك ف بوردنون، والذي أرسل هناك لإعداد مراكز تبشيرية للديانة المسيحية للمذهب الكاثوليكي.

٧- المبحث السابع من كتابات الرحالة الأوربيين هو رحلة جوردانوس القطلاني، ومن النتائج التي نتجت عن هذه الرحلة كتاب وصف عجائب الشرق الذي يتناول الفترة من ١٣٢٩- ١٣٣٨م ، وتحدث فيه عن المعلومات الخاصة بالبحر المتوسط،، وأرمينيا وبلاد قارس، وبلاد الهند.

٨- البحث الثامن في هذا الباب تناول مصر والشام في كتابات الرحالة والجغرافي يوحنا ماندفيل، وذلك في الفترة من ١٣٤٦- ١٣٤٧م، وألقي هذا البحث في مؤتمر الوطن العربي عبر العصور الذي انعقد برعاية اتحاد المؤرخين العرب من ٦-٧ نوفمبر عام ٢٠١٣م، ونشر في حصاد اتحاد المؤرخين العرب لعام ٢٠١٣م.

٩- أما البحث التاسع والأخير في هذا الباب فتضمن تفاصيل رحلة أفاناسي نيكتين الروسي ١٤٦٦- ١٤٧٢م، يصف أفاناسي رحلته إلى بحر قزوين، والمحيط الهندي (البحر العربي)، بالإضافة إلى البحر

الأسود.

بالنسبة للباب الثاني من هذا الكتاب بعنوان "الجغرافيون في أوروبا العصور الوسطى"، فتضمن مقدمة تمهيدية عن الجغرافيا في العصور القديمة أعدتها إيناس أحمد السيد مدرس اللغة اليونانية بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية.، وتشمل بيانات عن الفلاسفة والمؤرخين الإغريق، ومنهم بطليموس، أما المباحث الأخرى التي تضمنها هذا الباب فتتمثل فيما يلي:

١. الجغرافيون، وبدايات العصور الوسطى
٢. إيسدور الإشبيلي.
٣. الجغرافيون المسلمون.
٤. عصر النهضة وأثره على العلوم الجغرافية في أوروبا.
٥. نشاط البرتغاليين عبر البحار والطرق التجارية.
٦. المدرسة الألمانية الجغرافية.
٧. مدرسة رسم الخرائط الفلمنكية (هولندا وبلجيكا) والإنجليزية ١٥٥٠– ١٦٥٠م.
٨. الخرائط الجغرافية في أوروبا العصور الوسطى : دراسة تاريخية، وهذا هو المبحث الأخير في هذا االكتاب والذي تضمن تفاصيل عن علم الخرائط، وأورد من خلاله ٣٤ خريطة جغرافية من أعمال الجغرافيين القدماء في العصور الوسطى. وأبدى المؤلف ملاحظاته على هذه الخرائط الجغرافية الكلاسيكية.

ويتضح من خلال استعراض هذا الكتاب المتميز مدى الأصالة والجدة في تناوله المجالات المختلفة الخاصة بالرحالة والجغرافيين في العصور الوسطى بأوروبا، والتي تثري المكتبة العربية بأحد أهم مصادر الإنتاج الفكري العربي في هذا المجال، والتي تساعد الباحثين والمشتغلين العرب بهذا المجال في إعداد بحوث جديدة متميزة.